يعني حرام ؟!

قصة بقلم غائب طعمه فرمان

ـ عندك فلوس ؟

ـ عندي . بس ما اعطيك . اخاف أن تسكر بها .

ضحك . وكانت ضحكته مكتومة بـ « اليشماغ » الذي كان يلف به رأسه . ولكن الرجل رأى اهتزاز كرشه المتدلي من فوق حزام اسود عريض مشدود على « دشداشة » زرقاء مقلمة .

ـ اسكر ؟ راح وقت السكر الاصلي .

ورفع ذراعه عاليا ليشير الى طول الزمن .

ـ اذن ، لاي غرض ؟

ـ اريد اروح للحمام . يعني حرام

ـ لا ، مو حرام

ـ شفت ؟ ـ وادار له وجهه متشجعا ، فرأى الرجل جبينه العالي يلمع في الضوء ، وارنبة انفه العريضة . وسمعه يقول ـ وحتى اذا سكرت . صار لي شهر ما ذايق العرق . يعني اذا شرب الانسان في الشهر مرة ، حرام ؟

لم يجبه الرجل . ذلك من حكم الدين والسنة . وطال الصمت. وخاف السائل من طوله ، فقال مستدركا .

ـ لا ، والله ، اريد اغسل جلدي .

بقي الرجل في صمته . اثارت هذه الجملة حركة في ذاكرته، واستدعت له صورة قديمة مدفونة في اعماقها . آنذاك لم يكن ذاويا . هشا ، مترهلا ، كما هو الان .كان يبدو لعينيه الطفوليتين جبارا ضخما ، ماردا نحاسيا ملتمع الجلد ، تتراقص عضلاته ، وتكاد تقفز مع كل حركة من حركاته القوية .

ـ ابو عطية يعطي .

تنبه الرجل له

ـ من ابوعطية ؟

ـ ما تعرفه ؟ الله ...

احس الرجل بخيبة آثمة ، وكأنما كان يظن أن هذا الثناء موجه له ، فاذا هو لغيره .

ـ اذن ، الله يعطيك .

تنهنه ، وقال :

ـ يعطي ؟ كان اعطى من زمان . فات الوقت .

كان ذلك اكيدا . فهو الآن لا يثير في نفس الرجل الا الشفقة والرثاء ، والامتعاض احيانا . بينما كان في طفولته صاحب اعاجيب. آنذاك كان صوته يرن رنينا قويا ، وكان يملأ الارجاء ضجة وحمحمة ولهاثا . وكان يراقبه من بعيد ، من خلال البخار المفبش ، في وجل واعجاب . كان كل رجل يبدو بين يديه ضئيلا ، صدئا ، كامدا ، مكورا على نفسه ، مستسلما له كل الاستسلام . وكان يملك السطوة عليه ، والقدرة على ان يقلبه ظهرا لبطن ، وجنبا لجنب ،وان ياتيه من امام ومن وراء ، ومن يمين ومن شمال ، وان يضربه هنا ، ويطبطب عليه هناك ، وان يسكب عليه المقدار الذي يريده من الماء بالحرارة التي يريدها ، والرجل المفعول به لا يكاد يحتج .لا يرفع صوته الا همهمة متوسلة ، وانينا متوجعا احيانا . وخلال ذلك كان شيء ينمو بين يدي الفاعل ، يولد شيئا فشيئا . من خلال الحك والتدليك ، وطاسات الماء ، ورغوة الصابون . كان انسانا يخلق من جديد ، أن يسلخ جلده على الاقل ، ويلبس جلدا جديدا ، لامعا ، متألقا ، صقيلا ، متوردا ، مفعما بنسغ حياة جديد.وعندما كان يلف بالفوطة كان يبدو وكأنه وليد جديد خرج من بين يدي مولدة ماهرة .

ـ تذكر لما كنت ادلك لك ؟

ـ اذكر .

هز رأسه . تضخيما لعمله ، واشار بذراعه الى الرجل وكأنه اتهام لا مرد له :

ـ انا اعرف جسمك أكثر مما تعرفه ام ولدك .

وفكر الرجل بمجون وحنق : انها لا تعرف الا النصف الاول من جسدي ، واقل من ذلك . وحتى هذا زهدت فيه ، وعافته. والآن انا وانت وحدنا في البيت . وسمعه يقول :

ـ كنت تخاف مني خوفك من الحية . تذكر ؟

هز الرجل رأسه . وقال في نفسه : اذكر ... اذكر لما دفعني ابي اليك لاول مرة قائلا : هذا جواد سيدلك لك . أنا تعبان .

ـ كنت فروجا بين يدّي .

وتذكر الرجل أول عمل قام به جواد . خلع المئزر الذي كان الطفل الذي كأنه يحكم شده حول خصره . خلعه بقوة وشناعة افزعته كثيرا ، وكأنه خلع الرجولة التي كان يستشعرها بعد ان اصبح يستحم في حمام الرجال مع ابيه ، حين صار حمام النسوان يحتج على دخوله !

ـ وتصور . كم كان ابوك يعطيني ؟

ـ كم ؟

ـ عشرة فلوس .

ضحك الرجل من اعماقه ، سرى ذلك عنه .

ـ قليلة .

ـ في ذلك الوقت كانت تساوي أكثر من مائة فلس ، اذا تكرمت واعطيتها لي الآن .

ـ تامر .

ولكن الرجل لم ينهض من مقعده ، ولم يأت بحركة . كان يود لو يداعبه .

فان ذهاب زوجته مع ولديها زعلانة الى بيت ابيها جعله مهموما ، ثقيل الرأس ، يغلي الدم في عروقه ، ويكاد ينبجس من مؤخرة رأسه . وقد هبط عليه جواد سلوى من ملاك الرحمة بالتعساء .

ـ (تأمر) هذه ما تتصرف بالسوق .

ـ لا تستعجل . الحمام يبقى حتى منتصف الليل .

هدأ جواد قليلا . انطرح بظهره على متكأ الاريكة ، وكأنه استسلم الى ما لا بد منه ... الانتظار . فانتزاع الفلوس من الناس عملية صعبة ليس مثل جلفهم وتدليكهم .

ـ تفضل ، احك ، اسأل .

فوجىء الرجل بذلك . كان منضوب النفس خاوي الرغبة . فساله ما ورد على لسانه :

ـ كم سنة اشتغلت بالحمام ؟

ـ سباطعش سنة .

واشار بثلاث اكف مفرودة الاصابع ، واصبعين اخريين : سبعة عشر عاما !

ـ عمر !

تنهد جواد وقال :

ـ لو جمعت الوسخ اللي طلعته من جلود الناس كان صار تلا ، ولو حسبت الصابون اللي غسلتهم به كان ملأ خانا في سوق الشورجه ، ولو حسبت الناس اللي غسلتهم كان صاروا فرقة في الجيش العراقي .

ـ ولو حسبت الفلوس اللي اخذتها ؟

ـ وين الفلوس ؟

واجاب على سؤاله بأن مرر اصابعه على فمه نزلا . يعني ازدردت خبزا .

ـ يعني ما حصلت من الحمام ؟

ـ بلى ... حصلت ! اي ، نعم ، بلى ، حصلت ذخرا راح يبقى معي حتى الموت .

وكان واضحا انه يسخر . ولم يرد الرجل أن يثير شجنه ، ان يجعل حديثه مأساويا . كان يود فقط لو يطرد الوحشة بحديث فارغ . فالوحشة في بيت فرغ بعد امتلاء تجثم على الصدر كالكابوس . الا ان جوادا اصر على أن يسمي ما حصل عليه : الروماتيزم !

وقال الرجل في سره ، وقد غشيته غاشية من الحزن : الروماتيزم او ضغط الدم ، كلاهما نتيجة لشيء واحد . الحار والبارد ، تقلب الجو ، عدم الاستقرار . واحس الرجل بفوران الدم في مؤخرة رأسه .

ـ الروماتيزم هو الذي طلعك من الحمام ؟

ـ الروماتيزم ! هه !

وكان الرجل يقول ذلك لغاية في نفسه ، وكانه يريد ان يعرف هل الضغط الذي يعانيه هو الذي سبب خروج زوجته من البيت ، ام خروجها هو الذي سبب ضغط الدم .

ـ كنت راضيا بالروماتيزم

(مثل رضاي بضغط الدم ؟)

ـ ليش طلعت ، اذن ؟

ـ قصة طويلة ، كانك لم تسمع بها . ام الولد لم تحك لك ؟

ـ قصة مسعودة ؟

ـ مسعودة السبب والمسبب .

وعاد جواد يذكره بقصة نسيها من تراكم احداث اسوأ منها . كان جواد قد تعهد مسعودة اليتيمة ، وتكفلها ، وساعدها كثيرا ، واستطاع ان يقنع صاحب الحمام بان يعطيها مناشف الحمام لتغسلها بينما كان ابنه يريد ان يعطيها لنساء اخريات دخل معهن في منفعة مشتركة . كسب مقابل متعة . واشتغلت مسعودة في غسل مناشف الحمام عدة سنوات . وفجأة فقدت منشفتان ، واهتبلها الفتى الشقي ابن صاحب الحمام ، فرصة للنيل من مسعودة ، ومنع عنها الغسيل . وتعقد الوضع حين وجدت المنشفتان عند مسعودة في حمام النساء بعد شهر .

ـ سرقتها ؟

ـ سرقتها ! بنت حلوة وبعمر الورود ، وما عندها منشفة تنشف بها ، يعني حرام تنشف بالمناشف التي ايبست اصابعها ؟

ـ ولكن وقع الذنب عليك .

ـ بعدها طردوني . والحقيقة طردني موسى بك صاحب الحمام وكان لا يريد فسالة شريفة ، مثل مسعودة .

لحظات صمت . ثم ساله الرجل :

ـ ومسعودة ؟ اين هي الان ؟

لم يجب جواد مباشرة ، بل سكت منشغلا بتعديل وضع يشماغه ثم قال بصوت مخذول :

ـ تزوجت .

ولم يشفعها بـ « يعني حرام تتزوج ؟ » ، بل اضاف باهت الصوت : راحت !

وفكر الرجل مع نفسه : ربما كان يطمع بشيء منها ؟ فقال « راحت » دون أن يبرر سلوكها الانساني بجملته المعهودة ، ربما كان يأمل بان هذا العصفور الذي رعاه ، لا بد ان يستجيب الى لمسات يده اخيرا . ولكنه طار الى عش رجل اخر .

ـ استقرت .

ـ الله يعلم . وكأنها ما كانت مستقرة . كانت تحصل من الحمام ستة دراهم بالاسبوع .

ـ ولكن المرأة تسعى الى رجل .

همهم جواد بجملة لم يفهمها الرجل . اعتراض ؟ اسف على ان لا يكون الرجل هو ؟ كان ينظر اليه نظرة كثيفة وعقة . وكأنه يقول له : طال الاستجواب ، يا رجل ، والفلوس نسيتها ! كان يبدو غامضا وهو متلثم في يشماغه ، يخفي تمتمة الشفتين ، وتوتر الشاربين ولم يعد في الجو اي مرح الان . نهض الرجل ليجلب له الفلوس .

ولما خلا الى نفسه اخذ يحس بنفس السأم والوحشة التي يحس بها في كل مساء وليل وصباح طوال الايام السبعة التي فارقته فيها زوجته وولداها . طاف في هذه الردهة التي كانت ملعبا للاطفال ، ومبعث صور التلفزيون المرتعشة ، واغاني ما يطلبه المستمعون ، والنكات والزعل ، والعراك ، وكل ما ليس له حصة فيه ولا مشاركة .

والقى نظرة على غرفة الاطفال . سريران متقابلان ، وكرسيان صغيران ، وطاولة عليها ارنب من مخمل ، وعلى الحائط رسوم مقطوعة من مجلات ملونة . والغرفة الان خالية ، والطفلان منحشران مع امهما في غرفة صغيرة . والام تقرأ في اذنيهما كلمات الهجو والعتاب على الاب القاسي ، الاناني ، الذي لا يحب الا نفسه وكتبه . وترك الغرفة الى حجرة نومه . سرير عريض ، ودولاب ملابس ، وصوان زينه ، وتلك المكتبة الصغيرة الملعونة التي كانت الزوجة لا ترتاح لها ، وتعتبرها نشازا . بالوعة في غرفة نوم . هي والبالوعة لا تمتلئان . تستنزفان ولا تشبعان . وكانت تريد ان تسد هذه البالوعة بماكنة خياطة !

خلع الرجل بندله ، واستلقى واضعا يديه تحت رأسه ، وقدما فوق قدم . واستسلم لافكاره . هو حر الان في ان يستسلم لها . بينما كانت لا تروق للزوجة . اليس بطرا ان تضطجع هذه الضجعة ، وتفكر بافكار ليس لها صوت تسمعه لتعرف ما هي . كانت تضيق بهما ، لانها تقذفه خارج اسوار العائلة التي يجب ان يكرس لها نفسه ، وماله ، ووقته ، وافكاره ، واعصابه ، وكانت الزوجة تحرق هذه الاعصاب والصمت الذي ترتخي فيه بدندنة لا تنقطع .

قال لها : هذا طغيان . انا رجل مثقف ، خريج كلية ، الا يحق لي ان اشتري كتابا بنصف دينار ؟ قالت : « كانك لم تشبع من الكتب . هذه الخزانة تكاد تنفجر بها » . « لم اقصر عليك في شيء . ابوك البزاز لم يكسك مثلما كسوتك انا » وعادت الى حكايتها التي لم تشبع

منها : « لم يقصر ؟ خلال عشرة اعوام وانا الح عليك بان تشتري ماكنة خياطة ! . « اوه ، احسان ! هذا موانصاف . كلما جمعت فلوسا قليلة واردت ان اشتري لك انبثقت لك حاجات اخرى ، وصرفتها . أما انا فلم تتبدل حاجاتي : الكتب وزجاجة من البيرة احيانا » . « هذا هو ! انت لم تخلق الا لهذا ! كتب وخمرة ! » وضاق بها ، ورفع صوته عليها ، على الكابوس الذي يشد على خناقه . وتطور الجدل . وخيل اليه ان الولدين ينصتان اليهما . وفي الصباح ذهب الى عمله ، ولما عاد كان البيت فارغا .

انزل قدمه ، وتمرغ الرجل في السرير البارد ، سرير الاحزان كما كان يسميه ، كلما خلا الى احسان فيه ، واستلقى طاردا عنه الوحشة التي تقصم ظهر البعير ، وتحول الحديث شيئا فشيئا الى شكوى ، الى تألم ، وحتى الى بكاء . مأساة وكانت لا تجد اية مأساة في ان يصاب رجل بضغط دم عال ، وهو في الخامسة والثلاثين ، ولكن المأساة ان تحتل مكتبه مكان ماكنة خياطة ! وكانت دائما تحس انها مظلومة . المداعبة والاستعطاف يثيران شجنها ، يشدانها بالحاح مطاليبها التي لم تستجب . وكانت كل مطاليبها ، شكاواها تتجمع في ساعة السرير تلك ، في ساعة النجوى والمناغاة واللذة ، وتبلغ ذروتها كلما بلغ هو ذروته . حتى اقترنت اللذة عنده بالاغتصاب .

اوه ، تبا ، سمع دقا على الباب . العلها هي ؟! يا رب !

نظر الى ساعته . كانت قد تجاوزت العاشرة . وساوره الشك وهو يبحث عن نعليه .

واصيب بخيبة حين سمع سعال رجل ، وهو يقترب من الباب . وبعد ثوان كان جواد امامه

ـ اشو جيت ؟

ـ اريد انام عندك . ام الولد طالعه .

ودخل غير مدعو ، وشم الرجل رائحة عرق .

ـ راح نخليني ما انام الليلة .

قالها الرجل بضيق ، وكان يعرف من بعض الليالي التي قضاها جواد عنده ، ان المدلك القديم يلطم فخذه بقوة اثناء النوم ، ويتمتم تمتمة موحشة ، وكأنه يقوم بتدليك في نومه .

ـ راح انام نومة هادئة . حمام ونص ربع عرق !

ـ والعرق ليش ؟

تأفف جواد نفثات خمر ، وقال :

ـ بعد الحمام اردت ان اندفأ بنص ربع عرق ، يعني حرام ؟

ـ موحرام ، اذا لم تشرب منذ شهر .

ضحك جواد ، وزايل الرجل شيء من غمه . جلس المدلك على نفس الاريكة . تلمس مفرشها بباطن كفه ، وقال :

ـ زين ... ناعم ! راح انام نومة عميقة ... ام الولد زعلت للتالي؟

ـ الله يعلم .

ـ لازم تداريها . النساء حمامات ما ينسن ابدا . عيونهن دائما في السماء ... حب ، حب ... لازم تنثر لهف الحب دائما ... لقط .. والا طارت .

وقال الرجل لنفسه : ربما هي الحكمة التي اكتسبها جواد من قصة مسعودة اذن ، فقد كان يطمع في شيء منها ! قال الرجل في شيء من التهكم الملتاع !

ـ كل فلوسنا للحب ... اللفط

ـ المرأة تحتاج الى مداراة .

ـ معلوم .

ـ ولكن الجزاء غير معلوم . يا ليتك تعرف كيف اشتغلت لحوريه

ـ من حورية هذه ؟

ـ الفنانة اللي كنت اشتغل في بيتها . ثلاث سنوات . ما تعرف ؟

ـ اعرف كنت تشتغل (وخجل ان يقول خادما) في احد البيوت. ولكن لا اعرف عند من ؟

ـ عند فنانة . حورية على اسمها . ثلاث سنين .كانت لا تناديني الا بـ « عيني ، حبيبي جواد » حتى حسبتها تحبني من صدق .

انا هم رجل ، حرام تحبه امرأة ؟

ـ لا ، موحرام .

ـ كنت اخدمها على اربعة وعشرين قيراط .

ومن خلال الاسئلة التي القاها الرجل بباعا فهم ان جوادا كان مكلفا بحمام الفنانة فقط . وكان لها حمام ابيض كبير فيه حوض صقيل ، ومرآة كبيرة ، ورف مملوء بالعطور والصابون والدهون ، واصباغ الشعر ، ومانيكور الاظافر ، شبهه جواد بصالون « حلاقة الامراء » .

ـ وكنت تغسل فيه ؟

ـ لا ، كانت لا تقبل . كنت اغسل في السطح . حقها ! شافتني مزنجر .

ـ هذه التي حسبتها تحبك .

ـ الحب له حدود .

وقص عليه كيف كان يهيىء الحمام كل يوم .يغسلهقبل الاستحمام، وبعد الاستحمام ، وينشف الارض . وكانت الروائح تدير رأسه . ولكنه كان راضيا بهذا العمل . تقرحت يده من الزرنيخ ، او لا يدري ما هو ، تلك المادة النافذة الرائحة التي يستخدمها للتعقيم . ومع ذلك قبل ورضي . وبمثل الجهد الذي كان يبذله في الماضي لتنظيف انسان، جلد بشري ، ليجعله ليجعلهيلع كانيلمّع حمام الفنانةويصفله،ويعطره، ويجعله متألقا مثل جلد بشري معافى .

كان جواد يطبق رأسه على صدره . وظن الرجل انه غفا . كانت يده الممتدة على مسند الاريكة اكثر بياضا من جلده ، وكان اليشماغ قد تهدل الان ، وغطى وجهه كله . كان يتكور كصرة من قماش مهلهل . ولكن ساقيه النحيلتين كانتا تتأرجحان . ومنهما عرف الرجل انه يقظان

ـ اذن ، ليش تركتها ؟

هب جواد ، وصار للصرة المزفة شيء من الطول :

ـ أنا تركتها ؟ هي اللي تركتني .

ـ والذنب عليك ؟

اعاد السؤال حيويته . حرك يده حركة دائرية مهمة ، حركة استغفار وأسف . ربما . ثم ارفع رأسه ونظر الى الرجل ، وقال .

ـ يمكن ذنبي !

ثم قال بصوت حاد متحشرج :

ـ بس الله يرحم أبوك ، يعني حرام مرة بعمرك تشوف مرية ربي كما خلقتني ؟ انا اللي شفت بقدر شعري من الرياجيل العريانين ، ما يحق لي اشوف وحدة عريانه ؟ يعني حرام ؟

كان قد تعب من صقل الحمام وتعقيمه ، وتعطيره ، واشعال البوتغاز . وكانت هي تستعجله وتصرخ به ، لانها تريد ان تذهب الى عملها مساء . وما كاد يخرج من الحمام حتى دخلت ، وشرعت تخلع ملابسها .

لاحت له الذراعان البضتان الناصعتان ، ثم ربلة الساق الممتلئة الملساء . وكانت قد تركت الباب مواربا ـ سهوا او استعجالا ـ فشجعه ذلك على ان يكمن في مكان لا تراه فيه ، ويراقبها تنضو ثيابها . تحل حمالة الثديين فينفر نهدان ممرعان منتهيان بقطعتين من الملبس الاحمر . راقبها ترفع ثدييها ، وكأنها تزنهما ، ثم تتمطى امام المرآة ،هازةردفيها، معجبة بجسمها الصقيل ، اللامع ، الغض ، الممتلىء لحما وطراوة ولينا ونعومة . ثم مدت يديها الى خصرها ، وخلعت آخر غلالة حريرية عن جسمها ، ورأى جواد ..... وندت منه شهقة لا ارادية جعلتها تلتفت ، تراه يراقبها . صرخت به ... وبعد الحمام طردته .

موسكو

غائب طعمة فرمان